

تاريخ الإرسال (2018-11-27)، تاريخ قبول النشر (2019-03-02)

أ. أحمد محمود أبو جرار

اسم الباحث:*

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - الجامعة
الأردنية - الأردن

اسم الجامعة والبلد:

* البريد الإلكتروني للباحث المرسل:

E-mail address:

aahmedabujrar@yahoo.com

تجليات المنهج الوصفي في كتاب قطرب " معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه "

الملخص:

يسعى الباحث إلى دراسة الجوانب الوصفية في كتاب قطرب، وقد بدأ البحث بإضاءة مختصرة حول مفهوم المنهج الوصفي، وأصوله وقواعده، ثم تناول مسألة السماع في كتاب قطرب ومظاهر عناية قطرب بها، ذلك أنّ السماع من أهم أصول المنهج الوصفي، ثم تناول الباحث الجانب الصوتي في كتاب قطرب، وطريقة معالجة قطرب للبحث الصوتي في كتابه، وقد جاء أسلوب قطرب في دراسته للجانب الصوتي وصفيًا كما ظهر ذلك في ثنايا البحث، ثم تناول الباحث عددًا من المسائل النحوية التي كان اختيار قطرب فيها وصفيًا، وقد بين الباحث الأسلوب الذي تناول به قطرب هذه المسائل.

كلمات مفتاحية: المنهج الوصفي، قطرب، السماع، البحث الصوتي، البحث النحوي.

The manifestations of descriptive approach in the book of Qutrab .The meanings of the holy Quran and explanation for problem of expressions

Abstract:

The researcher seeks to study descriptive aspects in the book of Qutrab . The research begins with a brief introduction to the concept of descriptive approach , its origins and its bases . The issue of hearing is dealt with in Qutrab's book and the aspects of its close attention , that is the listener of the most important descriptive method . Then , the researcher deals with the audio aspect in the book of Qutrab and the method of addressing the writer for voice search in his book . The style of the researcher in his study of the vocal side appears clearly as a descriptive aspect . The researcher deals with a number of grammatical issues that the writer's choice is descriptive . He explains the manner in which the author deals with these issues .

Keywords: descriptive approach – Qutrab - voice search.

المقدمة:

إنّ تطوّر الدراسات اللغوية في العصر الحديث، سيما لدى علماء اللغة الغربيين، قد أفرز العديد من النظريات والمناهج اللغوية التي أشغلت الدارسين في مجال اللغة، والنحو، وطغت على دراساتهم، ومؤلفاتهم، ومن هذه المناهج والنظريات المنهج الوصفي الذي يعدّه كثير من المشتغلين بعلوم اللغة فتحًا علميًا، وسبقًا معرفيًا، " ووجد المنهج الوصفي سبيله إلى التطبيق على يد العالم السويدي (فردينان دي سوسير) ،ويعدّ كتابه (علم اللغة العام) كشفًا في هذا المجال اللغوي، وتحولًا عميقًا في الدراسات اللغوية¹ .

ولقد كان موقف الدارسين العرب من هذه النظريات اللسانية الحديثة متباينًا، فمنهم من وقف منها موقف الرفض والمعارضة، ومنهم من وقف منها موقف الإعجاب والتأثر والانبهار؛ الأمر الذي جعل من هذه النظريات والمناهج اللسانية الحديثة مادة للصراع بين الفريقين، وقد بالغ كل من الفريقين في موقفه، فذهب المعارضون إلى أنّ هذه المناهج غريبة على العربية لا ينبغي تطبيقها ولا العمل وفق أصولها وقواعدها، وذهب الفريق الثاني إلى اتهام الدراسات النحوية العربية بالقصور والضعف والعجز عن مواكبة التطور والحداثة والتجديد، وعدم القدرة على تطبيق هذه النظريات، والإفادة منها في مجال البحوث اللغوية .

وثمة فريق ثالث تعامل مع هذه المناهج والنظريات اللسانية بأسلوب علمي غير متعصب؛ فاللغة العربية تجاوزت كل تحديات التاريخ، وانفتحت على كل الحضارات، وأفادت منها، وقدمت لها، في تبادل ثقافي وعلمي يحافظ على الثابت والأصول، ويقبل بالتجديد والتطوير وفق تلك الضوابط والأصول. ومن هنا كانت تلك النظريات والمناهج اللسانية الحديثة مجالًا للبحث والدراسة والمناقشة، ومادة قابلة للأخذ والرد والتعديل، مع مراعاة خصوصية اللغة العربية عند التعامل مع هذه النظريات، والمناهج اللسانية الغربية .

وقد تناولت هذه الدراسة كتاب قطرب "معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه " وتسعى لبيان الجوانب الوصفية في هذا الكتاب، وقد جاء البحث مقسمًا إلى أربعة أقسام :

- 1- تعريف بالمنهج الوصفي، وإضاءة تاريخية حول نشأته .
- 2- دراسة قواعد السماع في كتاب قطرب.
- 3- دراسة الجانب الصوتي عند قطرب في كتابه " معاني القرآن".
- 4- دراسة الجانب النحوي في كتاب "معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه".

أهداف البحث:

يسعى الباحث لبيان أصول المنهج الوصفي في كتاب "معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه".

أسئلة البحث :

- 1- هل أتبع قطرب في معالجة المسائل النحوية، والصوتية المنهج الوصفي ؟
- 2- ما قواعد المنهج الوصفي التي وظفها قطرب في كتابه ؟

حدود البحث : يقتصر البحث على كتاب " معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه".

منهج البحث :

أتبع الباحث المنهج الاستقرائي، حيث تتبع الباحث عددًا من المسائل التي تناولها قطرب في كتابه؛ للوصول إلى منهج المؤلف .

¹ - أحمد، المنهج الوصفي، (ص23).

المنهج الوصفي في الدراسات اللغوية الحديثة:

يُعرف المنهج الوصفي على أنه "المنهج الذي يعنى بوصف اللغة من حيث هي تنظيم قائم بذاته"². فهو "منهج لغوي خالص يصف اللغة المدروسة كما هي، فبين ما لعناصرها من خصائص ومميزات، وما بينهما من علاقات، دون إقحام العوامل الذاتية في فروض وظنون وآراء شخصية"³. ولقد تصدرت المناهج التاريخية والمقارنة الدراسات اللغوية قبل ظهور المنهج الوصفي، وطغت عليها، لكنّ المنهج الوصفي قد حظي بالصدارة بعد ظهوره، وتراجعت الدراسات التاريخية، ف" إذا اصطبغ القرن التاسع عشر بالصبغة التاريخية، فإنّ القرن العشرين إنما يصطبغ بالصبغة الوصفية"⁴.

وتشير الدراسات إلى أنّ "ظهور المنهج الوصفي في الدرس اللغوي كان ردّ فعل على المنهج التاريخي الذي سيطر على أعمال اللغويين الأوربيين طوال القرن التاسع عشر"⁵. وتؤكد هذه الدراسات أنّ البوادر الأولى للدراسة الوصفية جاءت لخدمة الدراسات التاريخية والمقارنة، أو مقدمة لها على يد المستشرق الألماني برجشتراسر، إلا أنّ ملاحظاته تلك لم يكتب لها الانتشار في الدراسات العربية الحديثة. فظهور بعض ملامح الوصفية، أو استخدام بعض أصولها وقواعدها لا يعني أنها برزت منهجاً مستقلاً، يمكن أن تبنى عليه دراسات لغوية مستقلة، وكذلك لم تنتشر الدراسات الوصفية في تلك الفترة؛ وذلك أنّ الصدارة كانت للمنهج التاريخي والمنهج المقارن، إذ طغيا على الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر.

ويعدّ (فردينان دي سوسير) واضع المنهج الوصفي في دراسة اللغة، فهو أول من طبق أصول المنهج الوصفي في الدراسات اللغوية، ونادى به منهجاً مستقلاً في البحوث اللغوية، واستفاد منه في الكثير من أبحاثه وعدّه ضرورة لدراسة اللغة؛ لأنه يرى أنّ اللغة كائن حي، والدراسة الوصفية تهتم بدراسة اللغة في مرحلة معينة؛ فهي تمثل ملخصاً لكل النشاطات اللغوية التي يستخدمها المجتمع اللغوي"⁶.

السمات العامة للمنهج الوصفي: تتفاوت المناهج في سماتها وتباين في خصائصها إلا أنّ المنهج الوصفي هو سيد المناهج في رأي الكثير من الدارسين؛ وذلك لما يتصف به من السمات الإيجابية التي أهلتها ليكون الأكثر استعمالاً في الدراسات اللغوية الحديثة عند العرب والمستشرقين، ويمكن تلخيص سماته بالآتي :

1- إنّ أبرز ما يتميز به المنهج الوصفي هو دراسة اللغة دراسة واقعية، فهو يجمع المعلومات التي تعطي وصفاً دقيقاً للظاهرة اللغوية، وتعطي إضاءة كافية لكشف خصائصها.

2- ينظر إلى اللغة نظرة وصفية تعتمد على الملاحظة المباشرة، ولا يهدف من ذلك إلى وضع قوانين، وأصول وضوابط يفرضها على المتكلمين باللغة، بل يهدف إلى وصف نظام اللغة الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي وصفاً واقعياً دون تدخل من الباحث"⁷.

3- يعدّ المنهج الوصفي في الدراسات اللغوية الأكثر واقعية من بين مناهج الدراسات اللغوية، كما أنه أسرع في نتائجه التي يمكن أن يتوصل إليها من بقية المناهج لا سيما التاريخي"⁸.

4- لا يتعرض المنهج الوصفي لمراحل نشوء الظاهرة اللغوية أو تطورها، فغاياته وصف الظاهرة اللغوية دون مقارنتها، أو الوقوف على مراحل تطورها السابقة، وتوصيف الظاهرة كما هي، وهذا ما أفاد النحو التعليمي؛ فقد انتشر المنهج الوصفي في الدراسات التعليمية انتشاراً كبيراً، إذ عمدت الدراسات التعليمية إلى اتباع المنهج الوصفي في وضع الكتب التعليمية"⁹.

² - زوين، منهج البحث اللغوي، (ص10).

³ - نحلة، أصول النحو العربي، (ص66).

⁴ - حسان، مناهج البحث في اللغة، (ص28).

⁵ - العزاوي، مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، (ص94).

⁶ - انظر، حسنين، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي، (ص64).

⁷ - انظر، حجازي، مدخل إلى علم اللغة، (ص135).

⁸ - انظر، عمارة، المستشرقون والمناهج اللغوية، (ص108).

إنّ هذه السمات للمنهج الوصفي جعلته المنهج المهيمن على الدراسات، والأبحاث اللغوية، وأصبحت قواعده وأصوله مرجعاً أساسياً في تلك الدراسات .

الدراسات اللغوية القديمة والمنهج الوصفي : يمكن للمطلع على الدراسات النحوية، واللغوية عند العرب القول إنّ العرب القدماء بدؤوا دراساتهم اللغوية بالاعتماد على المنهج الوصفي؛ وقد تمثل ذلك من خلال منهج السماع الذي اعتمده في بداية دراساتهم؛ فلا يمكن لدارس اللغة إلا أن يجمع الظواهر اللغوية موضوع البحث، ثم يقوم بتصنيفها ودراستها، بعد ملاحظتها وتجربتها، والخروج بنتائج، أو قواعد تخص هذه الظواهر . وقد كانت الدراسات النحوية في بداياتها جزءاً من دراسة اللغة، حيث كان علماء الطبقة الأولى يمزجون بين دراسة اللغة، والنحو، فكانت لهم جهودهم في ميدان جمع اللغة، وتمحيص نصوصها، ودراستها لاستخلاص القواعد منها، كما كانت لهم جهودهم في مجال وضع أسس النحو، وقواعده على أساس ما توصلوا إليه في الميدان اللغوي".¹⁰

فالناظر في جهود علماء النحو واللغة، المنتبغ طرائقهم في جمع اللغة، وتدوينها، وتبويبها، وتأصيلها وتأطيرها، يجد أنّ تلك الجهود تدور بين قواعد المنهج الوصفي، والمنهج المعياري، مبتدئة بالمنهج الوصفي، فالوصفية تتمثل في قواعد السماع والمشاهدة والنقل، ثم تصنيف المادة العلمية، وما صاحب ذلك من ثوابت علمية تدور في فلك المنهج الوصفي، أما المعيارية فيمثلها القياس والتعليل والتأويل.¹¹

ورغم ظهور المنهج الوصفي في الدراسات الغربية الحديثة في القرن العشرين، إلا أنّ كثيراً من الباحثين يرى أنّ البذور الأولى للمنهج الوصفي ظهرت لدى العرب في بداية تصنيفهم النحوي، الذي تحول بعد ذلك إلى المعيارية، مبتدئاً عن الوصفية، يقول تمام حسان مقررًا هذه الحقيقة : " إنّ تاريخ دراسة اللغة العربية ليعرض علينا في بدايته محاولة جدية لإنشاء منهج وصفي في دراسة اللغة، يقوم على جمع المادة وروايتها ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم"¹² .

ومن هنا فالمنهج العربي في جمع المادة اللغوية وتصنيفها من خلال قواعد النقل والمشاهدة والسماع المتبعة آنذاك تتشابه إلى حد بعيد مع بعض المناهج اللسانية السائدة في عصرنا الحديث، لا سيما المنهج الوصفي، كما يؤكد ذلك تمام حسان . وقد أشار إلى هذه الحقيقة كريم حسين ناصح الخالدي في كتابه "مناهج التأليف النحوي"، وردّ على من نفى المنهج الوصفي عن أبحاث القدماء بسبب اعتمادهم التعليل، مؤكداً أنّ التعليل لا يمنع من اعتماد نحائنا الأول المنهج الوصفي في دراساتهم، وفي ذلك يقول: "وإذا كان التعليل مما عابه النحاة المعاصرون على نحائنا الأوائل، ومنهم سيبويه باعتباره سلوكاً يتنافى مع المنهج الوصفي فإن ذلك لا يقف حائلاً دون عدّ منهج يونس، والخليل، وسيبويه، والكسائي منهجاً وصفيًا، أو فطريًا"¹³.

وفي كتاب له بعنوان "المنهج الوصفي في كتاب سيبويه" أثبت الباحث نوزاد حسن أنّ الأسس الحقيقية التي يستند إليها المنهج الوصفي الحديث هي نفسها التي اعتمدها سيبويه في كتابه (الكتاب)، حيث التزم وحدة الزمان والمكان، والاستعمال الواقعي للغة من خلال الاعتماد على السماع المباشر من أفواه العرب، والتفريق بين اللغة والكلام، والاحتفاء باللغة المنطوقة، واعتماد التصنيف منهجاً في دراسة اللغة، والركون إلى الملاحظة والتجربة في الاستقراء اللغوي، واتخاذ القياس الطبيعي المستند إلى منطق اللغة أساساً في منهجه، والتقيد بالموضوعية في إطلاق الأحكام اللغوية، وهي في جملتها حقائق وصفية لا دفع لها.¹⁴ وفي موضع آخر من كتابه يشير إلى ظهور المبادئ الأساسية للمنهج الوصفي في الدراسات اللغوية القديمة، لا سيما

⁹ - انظر، البياتي، المنهج الوصفي في كتاب في النحو العربي، (مج 4، ص39).

¹⁰ - انظر، حجازي أسس علم اللغة العربية، (ص60).

¹¹ - خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، د.حلمي، (ص32).

¹² - حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، (ص28).

¹³ - الخالدي، مناهج تأليف النحوي، (ص47).

¹⁴ - انظر، أحمد، المنهج الوصفي، (ص 15-16).

كتاب سيبويه (الكتاب)، فيقول: " ثم إنه النبع الصافي لمنهج البحث الوصفي عند العرب؛ إذ وقف صاحبه عند الظواهر اللغوية طويلاً يصف حقاقتها، ويتأمل أسرارها، ويحلل بنيتها؛ ليصل إلى أحكام تمثل غاية في النضج"¹⁵.

وهو في هذا الكتاب يثبت اعتماد المنهج الوصفي في كثير من مراحل جمع اللغة وتدوينها، وتصنيفها، كما يثبت أن العرب عرفوا مبادئ ذلك المنهج وهو ما يظهر في شروطهم وضابطهم التي وضعوها لنقل اللغة وللبينة التي تؤخذ منها، وهو إذ يثبت ذلك ليؤكد أن المنهج الوصفي لم يظهر متكاملًا إلا على يد (سوسير)، إذ يصرح بذلك قائلاً: " إن المنهج الوصفي وجد سبيله إلى التطبيق على يد العالم السوسيري (فريدينان دي سوسير)، ويعد كتابه "علم اللغة العام" كشفًا في المجال اللغوي، وتحولاً عميقاً في الدراسات اللغوية"¹⁶.

فالنحو عند القدماء كان مرتبطاً بالواقع اللغوي، وهو ما اصطاح عليه المحدثون بـ(الاستعمال)، وهو من أهم ركائز المنهج الوصفي، فأصحاب علم اللغة الحديث يرون أن مهمة الدارس ينبغي أن تقتصر على وصف ما هو موجود من غير تصرف ولا تغيير، فإن كان ما هو موجود معوجاً فليس لأحد أن يقومه، وإنما ينبغي له أن يلاحظ عوجه كما هو، أما أن تمتد الأيدي والألسن لتعديل النطق والتصرف فيه فهو أمر ينافي مهمة الباحث كما يقرر ذلك الوصفيون المحدثون؛ لذلك عدوا ضوابط النحاة، وشروطهم وتعليقاتهم أمراً لا يمكن قبوله، فهو يتنافى مع أصول المنهج الوصفي"¹⁷.

ويعد السماع من أبرز أصول المنهج الوصفي التي عرفها العرب وطبقوها في دراساتهم اللغوية، إذ أحاطوه بضوابط منهجية تدل على سبقهم وتقدمهم في هذا المضمار، ومعرفتهم لأصول ذلك المنهج، إذ بينوا أصوله وأساسه، وضوابطه بالتطبيق العملي تارة، وبالتظهير تارة أخرى، يقول ابن فارس: "تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات، وتؤخذ تلقناً من ملقن، وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات، ذوي الصدق والأمانة"¹⁸.

وهو هنا يشير إلى مستويات مختلفة من السماع، وينبه على طرائق تلقي اللغة، وتعلمها، واكتسابها، ونقلها، فالطفل يأخذ بالسماع الذي عدّه ابن فارس أداة من أدوات التعلم، أما السماع المنهجي فهو طريقة لنقل اللغة ودراستها، وفي كلامه السابق ما يشير إلى بعض شروط النقل والسماع. فقد استطاع اللغويون العرب القيام بدراسة تحليلية وصفية فذة للغتنا¹⁹، وهو ليس من مبتكرات الغرب كما تشير المصادر الحديثة، إنما هو منهج عربي تليد، يؤكد ذلك أنيس فريحة في حديثه عن سبق العرب لمعرفة المنهج الوصفي، إذ يقول: " يظن أصحاب المنهج الوصفي الحديث في الغرب أنهم اكتشفوا شيئاً عظيماً مستحدثاً"²⁰، والحق أن ابن جني في نظريته إلى العامل في اللغة، وابن مضاء القرطبي في كتابه (الرد على النحاة) يعتبران مؤسسي المنهج الوصفي الذي تحدر إلينا، ولا يزال على ما كان في العصور الإسلامية الأولى، ويؤكد ذلك الدكتور عبده الراجحي، إذ يقول: " إلا أن ذلك كله يلفتنا إلى أن كتب النحو العربي حافلة، بمادة صالحة جداً عن العربية، وهذه المادة - وإن تكن في مستوى لغوي وزماني ومكاني معين - تقفنا على طريقة القدماء في تناول الظاهرة اللغوية، وهي طريقة لا تتعد - في جوهرها - عن كثير مما يقرره الوصفيون"²¹.

وقد أثبت كثير من الدارسين العرب وهم يتناولون هذه النظريات أنها ولدت من رحم الدراسات العربية القديمة، خاصة المنهج الوصفي، حيث قامت العديد من البحوث اللغوية التي أكدت سبق العرب لأصول هذا المنهج وتطبيقهم لقواعده.

¹⁵ - أحمد، المنهج الوصفي، (ص 14).

¹⁶ - انظر، المرجع السابق، (ص 23).

¹⁷ - انظر، المالكي، موقف علم اللغة الحديث من أصول النحو العربي، (ص 33).

¹⁸ - ابن فارس، الصحاحي في فقه اللغة العربية مسائلها، (ص 62).

¹⁹ - نهر، الحروف والأصوات في مباحث القدماء والمحدثين، (ص 213).

²⁰ - انظر، الراوي، نظرات في اللغة والنحو، (ص 86).

21 - الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، (ص 53).

وتسعى هذه الدراسة لبيان أصول المنهج الوصفي في كتاب "معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه" لقطرب، وذلك بالوقوف على أمثلة تطبيقية من دراسة قطرب، وبيان أصول المنهج الوصفي التي أتبعها في كتابه.

السماع عند قطرب :

إن الناظر في كتاب قطرب " معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه " ليجد له عناية فائقة بالمسموع من لغة العرب؛ جرياً على طريقة علماء اللغة في عصره، وحرصاً على الوصول إلى اللغة من معينها الصافي، فالسماع هو الوسيلة الأصدق والأدق للاتصال بناطقي اللغة، وهو سبيل ربط البحث اللغوي بواقع اللغة المنطوق .

"إن مصدر العناية باللغة المسموعة في المنهج الوصفي متأت من أمرين، أحدهما : جعل البحث اللغوي واقعياً من خلال ربطه باللغة المستعملة فعلاً، والآخر: الوقوف على العادات النطقية لمركلي اللغة"²².

والمتتبع لمنهج قطرب في عرض ما وصل إليه من اللغة يجد دقة متناهية في وصف طريق النقل والسماع؛ وما ذلك إلا عناية بهذا الأصل اللغوي الذي يعدّ الأساس الذي انطلقت منه عامّة الدراسات اللغوية والنحوية، فهو كما يعنى باللغة المنقولة بالسماع، كذلك يعنى بطريق ذلك السماع وضبطها، مراعيًا في ذلك الأمانة والاتصال والثقة والضبط، ومما يدلّك على ذلك قوله : " وحكى لنا من نثق به معمر التيمي أنّ بعض العرب يقول، وسمعنا ذلك في أشعارهم"²³، "وقد حكى لنا من نثق به"²⁴، " وقال آخر سمعناه ممن يوثق به لرجل من طيء"²⁵، " سمعنا الثقة"²⁶.

فهو يؤكد أنّ مصدر السماع الذي أوصله إليه يتصف بالثقة، وذلك من الشروط التي ذكرها علماء اللغة وأكدوا عليها، واعتنوا بها، وهي من الأصول التي يعنى بها المنهج الوصفي الحديث.

فمساحة السماع لدى قطرب واسعة تشمل عددًا كبيرًا، ومتنوعًا من القبائل العربية، يقول قطرب : " وحكي عن طيء أنهم يقولون"²⁷، "وقالت امرأة من فقعس"²⁸، " وبعض تميم يقف"²⁹، " وقد حكاها يونس لنا عن أعرب الناس من بني سليم"³⁰، " وقال بعض أهل الحجاز"³¹، " وقال أعرابي من أهل العالية"³²، " وهي لغة لقيس فاشية في أشعارهم"³³، " لغة هذيل وعامة تميم من عكل ومن جاورهم"³⁴، " قریش وسعد بن بكر وعامة قيس وكنانة"³⁵، " لغة فاشية في أهل العالية، وبعض هذيل وبعض فزارة"³⁶، " لغة تميمية قيسية، وهي لغة أهل نجد"³⁷، " وتميم وبعض ربيعة يقولون"³⁸، " وبعض فزارة وبعض أهل اليمن يقول"³⁹، " وقال الراجز من بني سعد"⁴⁰، " لغة ربيعة"⁴¹، " لغة تميم وعامر وأسد... وأهل الحجاز وكلب يفتحون، ... وقيس بن عامر وسليم

22 - أحمد، المنهج الوصفي، (ص 26).

23 - قطرب، معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه، (ص 201).

24- المرجع السابق، ص 205

25- المرجع نفسه، ص 218.

26- المرجع نفسه، ص 208.

27- المرجع نفسه، ص 206.

28- المرجع نفسه، ص 215.

29- المرجع نفسه، ص 219.

30- المرجع نفسه، ص 221.

31- المرجع نفسه، ص 222.

32- المرجع نفسه، (ص 215).

33- المرجع نفسه، ص 227.

34- المرجع نفسه، ص 237.

35- المرجع نفسه، ص 237.

36- المرجع نفسه، ص 244.

37- قطرب، معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه، ص 265.

38- المرجع السابق، ص 291.

39- المرجع نفسه، ص 302.

40- المرجع نفسه، (ص 311).

وغيرهم إلا غطفان، وخزاعة وهذيل يضمون⁴²، " وقد أبدل بعض العرب من أهل العالية وبعض فزارة... وفتح لام الأمر لغة سليم وعكل وضبة... قريش وكنانة وأسد وكثير من العرب يدعون الهمز⁴³، " والكسر لغة لبني ضبة⁴⁴، " وحدثت أنّ فاطراً في لغة حمير خاصة⁴⁵، " وحكي عن بعض بني كلاب⁴⁶، " وقد فتح بعض بني ضبة هذه العينات⁴⁷. ومما يضيء على دراسته صفة الوصفية عنايته بنقل اللغة حتى لو جاءت عن رجل واحد أو امرأة واحدة، معروفاً كان، أم مجهولاً ما دام من أهل الفصاحة والبيان، وهو ما يعرف في المنهج الوصفي الحديث بالراوي، أو مساعد البحث؛ كونه الممثل الحقيقي للغة⁴⁸، يدل على ذلك نقوله في مواضع متعددة من كتابه، يقول قطرب: " وحكي أنّ بعضهم قال⁴⁹، "، " وقال أعرابي من أهل العالية... وقال بعض العرب... وقد سمعنا في الشعر مثله⁵⁰، " وسمعت العرب⁵¹، " وقال بعض الرواة⁵²، " وبلغنا أن أعرابيا قال⁵³، " وقال أعرابي⁵⁴، ورغم اتساع الرواية التي اتصف بها كتاب قطرب، إلا أنه كان يأخذ عن شيوخه، ويعتمد ما سمعه منهم؛ وذلك أن شيوخه يتصفون بالعدالة والثقة والضبط، فتجتمع فيهم صفات الراوي التي يشترطها المنهج الوصفي لنقل اللغة وروايتها .

إنّ العناية الفائقة بالسماع وطرقه، والمسموع وضبطه، والتي ظهرت في منهج قطرب في كتابه " معاني القرآن" لا تخرج عن أصول المنهج الوصفي الحديث، كما تؤكد إيمانه بأنّ اللغة حقيقة اجتماعية، وهذا ما يذهب إليه المنهج الوصفي، إذ يقرر أنّ " اللغة مسلك اجتماعي يجري في نماذج معينة من الأداء، وأنّ المجتمع هو الذي يحدد هذه النماذج بطريق العرف⁵⁵. ولعل من أهمّ ما يقوم عليه المنهج الوصفي التتبع للمادة اللغوية من مصادرها المتنوعة، والوصف الدقيق لهذه المادة اللغوية، وهذا ما ظهر جلياً في المنهج الذي اتبعه قطرب في كتابه، حيث حرص على استقصاء الشواهد القرآنية، والشعرية، والنثرية، من خلال الكم الهائل من المادة المسموعة التي ضمنها كتابه .

البحث الصوتي في كتاب " معاني القرآن " : لقد تميزت المصنفات اللغوية والنحوية الأولى بالعناية بالجانب الصوتي؛ فالصوت اللغوي هو العنصر الرئيس في بناء اللغة، واللغة مجموعة من الأنظمة، والصوت هو اللبنة الأساسية في أنظمة اللغة جميعها، بل قد عرف ابن جني اللغة بأنها: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁵⁶، فاللغة والكلام الذي يتواصل به أهل كل لغة هو: "عبارة عن أصوات نستطيع عن طريقها أن ننظم علاقاتنا"⁵⁷.

لقد أدرك علماء اللغة والنحو العرب أهمية الجانب الصوتي في الدراسات النحوية، ومنهم قطرب في كتابه معاني القرآن، إذ تأثر بشيخه سيبويه الذي كانت له عناية فائقة بالجانب الصوتي في كتابه "الكتاب"، وقد أشار الدكتور نوزاد حسن إلى عناية سيبويه بالجانب الصوتي فقال: " وقد أدرك سيبويه أهمية النظام الصوتي وكان على وعي تام بأنّ دراسة الأصوات مقدمة لا بدّ

41- قطرب، معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه، ص357.

42- انظر، المرجع السابق، ص385-399.

43- انظر، المرجع نفسه، ص412-445.

44- المرجع نفسه ص512.

45- المرجع نفسه ص536.

46- المرجع نفسه ص540.

47- المرجع نفسه ص795.

48- ينظر، أحمد، المنهج الوصفي، (ص39).

49- قطرب، معاني القرآن، (ص201).

50- ينظر، المرجع السابق، ص215-218.

51- المرجع نفسه، ص 289.

52- المرجع نفسه، ص312.

53- المرجع نفسه، ص314.

54- المرجع نفسه، ص314.

55- ينظر، حسان، اللغة بين الوصفية والمعيارية، (ص16).

56- ابن جني، الخصائص، (ج1، ص33).

57- خرما، أعضاء على الدراسات اللغوية المعاصرة، (ص 253).

منها لدراسة اللغة؛ لذلك فقد تناول بالوصف الصوت المنطوق فبين عدده، وحدد مخرج كل صوت، وما يصحبه من حركات أعضاء النطق؛ لأن غرض الباحث في علم الصوت هو أن يبين ما في نطق الصوت من حركات عضوية⁵⁸.

واللغة المنطوقة هي مجال البحث الصوتي؛ "ذلك أنّ التغيرات الصوتية تظهر على اللغة المنطوقة بشكل أدق، فبين النطق أثر التعاملات الصوتية في المستوى الصوتي"⁵⁹، وقد أولى المنهج الوصفي الحديث اللغة المسموعة عناية فائقة؛ ليكون البحث اللغوي واقعياً، من خلال ربطه باللغة المستعملة، ولتتمكن الباحث من الوقوف على العادات النطقية لأصحاب اللغة⁶⁰.

والناظر في كتاب قطرب يجد تساوقاً واضحاً مع أصول المنهج الوصفي الحديث، كما يجد أثراً واضحاً لمنهج سيويه في وصف الأصوات، فهو يعنى بوصف حركات أعضاء النطق عند التلفظ ببعض الأوزان، كما يعنى بوصف التداخل الصوتي وأثره في تغيير بعض الحروف، أو حذفها ومن ذلك قوله: "فأما الإشمام ففي الرفع خاصة...تلفظ بالحرف ثم تضم شفطيك عند انقضاء الحرف"⁶¹، وهذه الدقة المتناهية في وصف حركات أجهزة النطق تدل على العناية بالجانب الصوتي، فهو تطبيق عملي لقواعد المنهج الوصفي، رغم أنّ كتاب قطرب من أقدم المصنفات اللغوية والنحوية، الأمر الذي يؤكد معرفة الوصفية وأصولها لدى علمائنا قبل أن يهتدي الغرب لأصول ذلك المنهج .

ويقول قطرب في موضع آخر من كتابه: "وإذا وقفت على ما حذفته منه الألف والواو والياء...إن شئت أدخلت الهاء في الوقف، وإن شئت حذفتها؛ وإنما أدخلوها ليبينوا بها حركة الحرف الذي دخلت عليه، وكرهوا أن يجمعوا عليه ذهاب حرف منه، وذهاب حركة آخره"⁶²، فهو هنا يقف على بعض المظاهر الصوتية معللاً ومفسراً...ويقول أيضاً: "وهو يرضى ويخشى أثبت هذه الألفات؛ لأنها أخف عليهم من الياء والواو؛ ولأنها تخرج كالنفس من الحلق بلا مؤونة فيها"⁶³، فهو هنا يحدد مخارج الحروف ويبين دورها، ويفسر أسباب حذف بعض الحروف أو إثباتها، ومنه قوله: "وكذلك الإدغام في الحرفين القريبين في المخرج؛ لأنهما يزدهمان في مخارجهما فيثقل اللفظ بهما"⁶⁴ .

ويشير إلى بعض العادات النطقية المرتبطة بحروف العلة، فيقول: "الياء إذا سكنت لم تكد تراها إلا مكسوراً ما قبلها"⁶⁵ . ويشير إلى ما يميز بعض الحروف من ناحية مخرجها، فيقول: "وكذلك ما كان ثانيه أحد الحروف الستة يخفف ويحرك وذلك : الهمزة والهاء والحاء والعين والغين والحاء، حروف الحلق، تفتح هذه الحروف؛ لانفتاحها في الحلق؛ فاتسع مخرجها"⁶⁶، ولقرب مخارج بعض الحروف يميل الناطق بها إلى جمعها وإدغامها . ومنه قوله: "هم يقولون : إنّي وإنني...فيحذفون لتداني المخرج؛ لأنّ اللام من مخرج النون تضع لسانك على حنكك الأعلى، فإذا قالوا : ليتني، أثبتوا النون؛ لتباعد التاء منها في المخرج"⁶⁷ . وقد أشار إلى رغبة العرب في خفة النطق وإعراضها عن الثقل بقوله: "قالوا في اللغة : استحيت، واستحيت لغتان...وإنما حذفوا إحدى اليائين؛ لاعتلال الياءات وثقلها"⁶⁸ .

إنّ العناية بالجانب الصوتي في كتاب "معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه " وهو من أوائل المصنفات اللغوية يدل دلالة واضحة على تجلي أصول المنهج الوصفي لدى الدارسين والعلماء العرب، ويؤكد سبقهم لمعرفة هذه الأصول، فالمنهج الوصفي قد عرفه

58 - أحمد، المنهج الوصفي، (ص87).

59- انظر ، سوسير ، علم اللغة العام، (ص46).

60- انظر ، أحمد، المنهج الوصفي، (ص26).

61 - قطرب ،معاني القرآن ، (ص196).

62- قطرب ،معاني القرآن ، ص214.

63 - المرجع السابق، ص218.

64- المرجع نفسه، ص236.

65 - المرجع نفسه، (ص240).

66 - المرجع نفسه ، (ص273).

67 - قطرب، معاني القرآن ، (ص296).

68 - المرجع السابق، (ص294).

الدارسون العرب، وطبقوا مبادئه، رغم أنّ كثيرًا من الباحثين يعده من نتاج الدراسات اللغوية الغربية، وقد أكدت الكثير من الدراسات والأبحاث عكس هذه المقولة، فالمنهج الوصفي قديم، وإن اهتدى إليه الغربيون متأخرًا .
الوصفية في البحث النحوي عند قطرب في كتابه " معاني القرآن " : لقد تناول قطرب في كتابه "معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه " العديد من المسائل النحوية واللغوية بأسلوب طغت عليه مبادئ المنهج الوصفي، فقد كان السماع والنقل مقدمًا على كثير من القواعد النحوية، كما أنه تعامل مع العديد من المسائل النحوية بعيدًا عن التأويلات والمقاييس المنطقية، وأعمل السماع وإن خالف القواعد المعيارية .

المسألة الأولى : مسألة تناوب الحروف : أجاز قطرب في كتابه "معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه" تناوب الحروف، وخالف بذلك البصريين الذين لا يرون جواز ذلك، ويذهبون إلى التأويل فيما ظاهره التناوب من الآيات القرآنية والشواهد الشعرية .
وقد أشار الأنباري في كتابه "الإنصاف " إلى مذهب البصريين في هذه المسألة، فقال: "وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: الأصل في "أو" أن تكون لأحد الشئيين على الإبهام، بخلاف "الواو وبل"؛ لأن "الواو" معناها الجمع بين الشئيين، و"بل" معناها الإضراب، وكلاهما مخالف لمعنى "أو"، والأصل في كل حرف ألا يدل إلا على ما وُضِعَ له، ولا يدل على معنى حرف آخر؛ فنحن تمسكنا بالأصل، ومن تمسك بالأصل استغنى عن إقامة الدليل، ومن عدل عن الأصل بقي مُرْتَهَنًا بإقامة الدليل، ولا دليل لهم يدل على صحة ما ادّعه"69. وقد خالف قطرب في هذه المسألة المدرسة النحوية البصرية، واحتج بالسماع، وما جاء عن العرب من الشواهد النحوية التي تدل على جواز تناوب الحروف، وقد أشار ابن جني في كتابه الخصائص إلى مذهب قطرب في هذه المسألة قائلاً: "وذهب قُطْرِبٌ إلى أنّ "أو" قد تكون بمعنى الواو"70 . وقد أورد عددًا من الشواهد النحوية التي تؤيد مذهبه بعد أن ذكر الآيات القرآنية التي جاءت فيها الحروف على غير ظاهر معناها، ومن الشواهد الشعرية التي احتج بها قطرب على جواز تناوب الحروف قول النابغة الذبياني:

قالت: ألا لئنمّا هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه، فَعَدِ71

فقد أشار هنا بأن "أو" في بيت النابغة جاءت بمعنى "الواو"، فقال: "يريد ونصفه "72، وهو هنا يقف مع السماع، ولا يذهب إلى التأويلات، والافتراضات التي يلجأ إليها النحاة عند معارضة الشاهد لمقتضى القاعدة النحوية . ومن الشواهد التي أوردها مستدلًا بها على مذهبه قول عمرو بن أحمر الباهلي :

قرى عنكما شهرين أو نصف ثالث ... إلى ذاكما قد غيّبتني غيايبا73

ولا يمكن أن تكون (أو) في هذا البيت على ظاهر معناها؛ لأن ذلك يؤدي إلى اختلال المعنى، فأراد قرى شهرين ونصفًا، ولا يجوز أن يكون أراد قرى شهرين أو نصف شهر ثالث، قال قطرب: "يريد ونصف ثالث"74.

فما ذهب إليه قطرب في هذه المسألة هو إعمال للشواهد النحوية على ظاهرها، والقول بما تقتضيه دون تأويلات أو تقديرات نحوية تخرج الشواهد عن ظاهرها، وهو في هذا المسألة يخالف المذهب النحوي الذي قالت به المدرسة البصرية، وهذا ما يؤكد أنّه كان وصفي المذهب في بعض أقواله واختياراته النحوية، الأمر الذي يثبت أنّ نحائنا الأول قد عرفوا الوصفية، ووظفوا أصولها قبل أن تعرفها الدراسات النحوية الحديثة.

المسألة الثانية: جواز الوقف على الأسماء التي لا تنصرف بالألف كما في الأسماء المصروفة : قال قطرب: " فإذا وقفت على المنصوب غير المنصرف لم تدخله الألف في النصب كما تدخل الأسماء المصروفة؛ لأنه لا تتوين فيه...كقولك رأيت عمرَ وأحمدَ

69 - الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف ، (ج2،ص393).

70 - ابن جني، الخصائص، (ج2، ص462).

71 - الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، (ص24).

72 - قطرب، معاني القرآن، (ص193).

73 - البغدادي خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، (ج11، ص76).

74 - قطرب معاني القرآن ، (ص 193).

"75، ولكنه بعد أن ذكر هذه القاعدة وساق أمثلة عليها أجاز مخالفتها؛ إعمالاً للشواهد النحوية التي جاءت مخالفة لما هو مقرر في هذه القاعدة النحوية، وفي ذلك تساوق مع أصول المنهج الوصفي الذي بدا جلياً في كثير من اختيارات قطرب في كتابه "معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه"، إذ يميل قطرب في كثير من اختياراته إلى تغليب السماع على القياس، ويرى أن ما ورد من السماع مخالفاً للقياس إنما هو من باب التنوع اللغوي، وليس من باب الخطأ والشذوذ والمخالفة . يقول قطرب بعد أن ساق القاعدة السابقة: "وحكي عن رؤية أنه قال في كلامه: رأيت عمرا وأحمدا، فوقف بالألف، ثم وصل فلم يصرف . وبعد أن أشار إلى جواز الوقوف على الأسماء غير المصروفة بالألف عند نصبها، أتبع ذلك بمسألة مشابهة، وهي الوقوف على الاسم المضاف بالألف عند نصبه، رغم أن قواعد العربية تأبى ذلك، وقد نقل قطرب ذلك عن بعض العرب قائلًا: "وحكي أن بعضهم قال: أكلت لحما ثم قال: شاة سميئة، فوقف بالألف، واللحم لا تتوين فيه؛ لأنه مضاف، كأنه أدخل الألف للفتحة خاصة" 76، ولم يعترض قطرب على هذه اللغة ولم يقل بشذوذها، وهي دلالة على أنه رضىها وأقرها، رغم مخالفتها للثابت من قواعد النحو والعربية. وفي تجويزه مخالفة القاعدة الثابتة عند علماء النحو ما يؤكد ما أشرت إليه سابقاً من تغليب السماع، والوقوف مع أصول المنهج الوصفي في كتابه، فهو منهج قد تبدى في كثير من الدراسات والأبحاث والمصنفات اللغوية القديمة .

المسألة الثالثة: حذف واو جمع المذكر السالم و ياء المخاطبة: أجاز قطرب حذف ياء المخاطبة، وواو الجماعة من الأفعال المسندة إليهما، احتجاجاً بما سمعه في ذلك من كلام العرب وأشعارهم، رغم أن هذه الضمائر ليست جزءاً من الأفعال المتصلة بها، فهي أسماء مستقلة بذاتها، وقد خالفه العديد من النحاة في هذه المسألة، ومنهم الأستراباذي الذي منع هذا الحذف قائلاً تحت عنوان "حذف الواو والياء اللتين هما ضميران لغة لبعض قيس وأسد: "ونحو: "الزيدون صنع" قليل قبيح؛ لأن الواو والياء فيما ذكرناه اسم مستقل وحذفه محال، بخلاف الواو والياء في نحو: زيد يغزو، وزيد يرمي وجاءني القاضي؛ لأنها جزء كلمة في الآخر فإذا حذف في الآخر كانت بقية الكلام دالة عليها فذلك استقبح قول تميم بن أبي بن مقبل:

لا يبعد الله أقواما تركتهم ... لم أدر بعد غداة البين ما صنع⁷⁷
أي: ما صنعوا⁷⁸.

وقد أورد قطرب العديد من الشواهد النحوية في هذه المسألة، دون الإشارة إلى ضعفها أو استبعادها، فدل على احتجاجه بها وإعمالها مضمونها النحوي، وذلك من أصول المنهج الوصفي الذي تبدى جلياً في هذا الكتاب منهجاً لصاحبه في العديد من المسائل النحوية التي درسها فيه. ومما احتج به على هذه المسألة قول عنتره العبيسي:

إنّ الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكلمي وتخضب⁷⁹

فحذف ياء المخاطبة من الفعل تخضبي، رغم أن مثل هذه الضمائر لا يجوز حذفها عند عامة النحاة.

ومما يدل على عنايته بالسماع واحتجاجه في كثير من مسائل كتابه بالسماع، قوله: "ولم نسمعه في ألف الاثنتين؛ لأنّ الألف تخف عليهم فلا يحذفونها" 80، فقد جعل السماع حجة، واستدل به على جواز حذف الواو والياء، رغم معارضة عدد من النحاة ذلك، أما حذف ألف الاثنتين فقد منعه؛ لأن العرب لم تتكلم به، ولم يصله به سماع أو نقل .

المسألة الرابعة: قيام المفرد مقام الجمع: أجاز قطرب في كتابه "معاني القرآن" قيام المفرد مقام الجمع، رغم أن عامة النحاة يرونه من باب الضرورة الشعرية، وقد أشار إلى ذلك سيبويه، والمبرد، يقول سيبويه: "وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ

75 - المرجع السابق ، (ص201).

76 - المرجع نفسه، (ص201).

77 - ابن أبي مقبل، ديوان تميم بن أبي مقبل، (ص168).

78 - الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، (ج1، ص129).

79 - التبريزي، ديوان عنتره بشرح الخطيب التبريزي، (ص29).

80 - قطرب، معاني القرآن، (ص227).

واحدًا والمعنى جميع، حتى قال بعضهم في الشعر " من ذلك " ما لا يُسْتَعْمَلُ في الكلام " 81، وقد نقل عنهما ذلك محمد عبد الخالق عزيمة في كتابه (دراسات لأسلوب القرآن الكريم)، إذ يقول: "سيبويه والمبرد يريان أنّ ذلك إنما يكون في ضرورة الشعر" 82. وقد أكد ذلك محب الدين الحلبي في كتابه "تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد" بقوله: "ولم يقس النحويون على هذا، وهو عند سيبويه من أقبح الضرورات، وحكى الأخفش عن العرب: ديناركم مختلفة، يريد دنانيركم وحملوه على الشذوذ" 83.

وفيما ذكره محب الدين نقلًا عن سيبويه، ونقله عزيمة أيضًا عن سيبويه والمبرد معيارية صارمة، حكم فيها النحاة على مخالفة القاعدة بالضرورة والشذوذ، وقد خالفها قطرب في كتابه وأعرض عنها، وأعمل لغة العرب على ظاهرها واستدل بأشعار العرب في إثبات مذهبه الذي يرى فيه جواز قيام المفرد مقام الجمع، دون أن يشير إلى الضرورة، أو إلى مخالفة القاعدة، وفي ذلك ما يؤكد ميله إلى السماع، والوصفية في هذه المسألة دون اعتبار للقواعد والقوالب الثابتة. وقد أورد بعد هذه الآيات الشواهد الشعرية التي جاءت دليلاً على هذه المسألة، ومنها قول حسان بن ثابت:

ولذنا ببي العنقاء وابني مُحَرِّقٍ ... فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنماً 84.

فقال : خالا، وأراد أخوالا . كما استدل بما نقله عن يونس من كلام العرب، فقال : " وزعم يونس أنهم يقولون :جئت بعدما هدأت الرجل، يريد الأرجل، وكثر الدرهم والدينار، من ذلك، والشاة والبعير " 85.

وفيما ذكره من الشواهد ما يدل على استخدام العرب لهذا الأسلوب، وهو ما ينطلق منه أصحاب المنهج الوصفي في الحكم على هذا الأسلوب اللغوي بالجواز، وقد جرى قطرب في هذه المسألة على قواعد المنهج الوصفي؛ فأجاز قيام المفرد مقام الجمع في سعة الكلام لا في ضرورته، ما يؤكد أنّ الوصفية من الأصول التي انطلق منها قطرب في كتابه.

المسألة الخامسة : تذكير الفعل وتأنيثه، بخلاف فاعله: الأصل في الفعل أن يذكر مع المذكر، وأن يؤنث مع المؤنث، وقد أشار قطرب إلى هذه القاعدة في مطلع حديثه عن التذكير والتأنيث، فقال: " فالتاء والياء قد قرئ بهما، وكل لا بأس به، وكانّ القياس بالتاء؛ لأنه مؤنث " 86. وفي قوله : كل لا بأس به، رغم أنه نص على أنّ القياس بالتأنيث، وصفية واضحة، وقبول لما جاء به السماع في ذلك من تعدد اللغات . وقد أشار الزمخشري إلى قاعدة التذكير والتأنيث فقال في كتابه (المفصل في صنعة الإعراب) : " المذكر ما خلا عن العلامات الثلاث: التاء والألف والياء، والمؤنث ما وجدت فيه إحداهن. والتأنيث على ضربين: حقيقي كتأنيث المرأة والناقة ونحوهما، وغير حقيقي كتأنيث الظلمة والنعل ونحوهما، والحقيقي أقوى، ولذلك امتنع في حال السعة جاء هند، وجاز طلع الشمس، وإن كان المختار طلعت، فإن وقع فصل استحيز... وليس بالسوسع، وقد رده المبرد" 87.

وقد ردّ أبو العباس النحوي على المبرد في كتابه الانتصار لسيبويه، وبين أنّ السماع أصل فقال: " وذلك أنه حكى عن سيبويه أنه روى عن بعض العرب: قال فلانة، ثم خطأه في ذلك، وهذا موضع التذكير فيه أشبه من التخطئة؛ لأنه ليس بقياس قاسه؛ فيرد عليه ويخطأ فيه، وإنما ذكر أنّ بعض العرب قال ذلك، فإن كانت التخطئة لمن قال ذلك من العرب فهذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلاً وكلام العرب فرعاً، فاستجاز أن يخطئها إذا تكلمت بفرع يخالف أصله" 88.

وقد أشار قطرب إلى أنّ التذكير كثير فيما فرق فيه بين الفعل وفاعله، وأجاز الوجهين عند الاتصال فقال : " وإذا كان الفعل متصلًا بالاسم مثل : شردت الناقة، وذهبت الدار، كان التأنيث أكثر " 89، وأجاز الوجهين مع الأدمي مع أنه نص على أنّ التأنيث أكثر،

81 - سيبويه، الكتاب، (ج1، ص209).

82 - عزيمة ،دراسات لأسلوب القرآن الكريم، (ج7، ص531).

83 - محب الدين الحلبي ،تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، (ج1، ص417).

84 - حسان، ديوان حسان بن ثابت، (ص35).

85 - قطرب، معاني القرآن، (ص 405).

86 - المرجع السابق، (ص414).

87 - الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، (ص248).

88 - النحوي ، الانتصار لسيبويه على المبرد، (ص124).

89 - قطرب، معاني القرآن، (ص414).

فقال: "وإذا كان الاسم آدمياً مثل : ذهب سعاد، وجاءت زينب، كان التأنيث أكثر وأحسن...وحكى لنا معمر التيمي عن يونس أنه كان يجيز: قدم أم حكيم بغير تاء"⁹⁰، ثم استشهد على ذلك بقول جرير :
لقد وَدَّ الأَخِيطلُّ أمُّ سَوِّءٍ ... على باب اسْتَيْهَا صُلْبٌ وَشَامٌ⁹¹

فقال "ولد" ولم يقل "ولدت". ثم تناول قطرب قضية الجمع فقال: "فإذا كان الجمع مؤنثاً كان ترك التاء في الفعل أحسن منه في الواحد...كقولك ذهب جواريك وقام إماؤك...وهذا كله التاء فيه أقيس للتأنيث، أن تقول : قامت جواريك، وذهبت إماؤك"⁹².
وفيما سبق يتحدث قطرب عن القياس ثم يذكر ما يخالفه ويرى أنه حسن، وإن كان القياس أحسن، وذلك قبول منه لتلك اللغات، وإعمال منه لمقتضى السماع، وقد نقلنا رد أبي العباس النحوي على المبرد، وقد جاء اختيار قطرب في ذلك موافقاً لما أشار إليه أبو العباس حيث أكد أن ما سمع عن العرب أصل قائم بذاته فقال: "وإنما ذكر أن بعض العرب قال ذلك، فإن كانت التخسئة لمن قال ذلك من العرب فهذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلاً وكلام العرب فرعاً، فاستجاز أن يخطئها إذا تكلمت بفرع يخالف أصله"⁹³.

المسألة السادسة : حمل الكلام على اللفظ وعلى المعنى : قال ابن خالويه: " ليس في كلام العرب ولا في شيء من العربية: ما رجع من معناه إلى لفظه إلا في حرف واحد استخرجه ابن مجاهد من القرآن، وهو قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾⁹⁴، فرجع بعد الجمع إلى التوحيد، ومن المذكر إلى المؤنث، ومن لفظه إلى معناه، ولا يرجع من معناه إلى لفظه إجماعاً من النحويين"⁹⁵.

وقد نقل الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن عن ابن الحاجب منعه العودة من المعنى إلى اللفظ، ثم خالفه فيما ذهب إليه، فقال: "وأما العودُ إِلَى اللَّفْظِ بَعْدَ اعْتِبَارِ الْمَعْنَى فَقَدْ وَرَدَ بِهِ التَّنْزِيلُ كَمَا وَرَدَ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى بَعْدَ اعْتِبَارِ اللَّفْظِ فَتَبَيَّنَتْ أَنَّهُ يَجُوزُ الْحَمْلُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَعْدَ الْآخَرِ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ"⁹⁶.

أما قطرب فقد تناول المسألة بطريقة وصفية خالصة، فأورد ما فيها من الشواهد، دون اعتراض، أو تضعيف فأورد الآية التي أوردها ابن خالويه من سورة الطلاق، ثم استدل على هذه المسألة بعدد من الشواهد الشعرية بعد أن أورد بعض ما فيها من الشواهد القرآنية، ومنها قول حاتم الطائي :

إذا ما البخيل الخبُّ أحمَد ناره أقول لمن يصلى بناي أوقدوا⁹⁷
فقد أفرَد، فقال : لمن يصلى، ثم جمع، فقال: أوقدوا .

وقول الفرزدق :

تعال فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان⁹⁸
فقال : تعال، عاهدتني، لا تخونني، ثم قال: نكن، فجمع، ثم قال: من، فأفرد، ثم قال: يصطحبان، فثنى .
وقول امرئ القيس :

ألمَّا بسلمى عنكما إن عرضتما وقولا لها عوجي على من تخلفوا⁹⁹

⁹⁰ - قطرب، معاني القرآن ، (ص415).

⁹¹ - جرير ، ديوان جرير،(ص283).

⁹² - قطرب، معاني القرآن، (ص415).

⁹³ - النحوي، الانتصار لسبويه على المبرد، (ص124).

⁹⁴ - الطلاق: 11

⁹⁵ - ابن خالويه، ليس في كلام العرب، (ص219).

⁹⁶ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (ج3، ص384).

⁹⁷ - الطائي، ديوان حاتم الطائي،(ص249).

⁹⁸ - الفرزدق، ديوان الفرزدق،(ص870).

⁹⁹ - امرئ القيس، ديوان امرئ القيس، (ص324).

فأفرد بقوله: (من)، ثم جمع بقوله: تخلفوا. وقد أورد قطرب في هذه المسألة من الشواهد الشعرية ما يقارب عشرين بيتاً، وبين وجه الدلالة فيها، ولم يعترض على هذه الشواهد، وأوردها مورد الاحتجاج والاستدلال، وفي هذا الصنيع منه إعمال لمقتضى السماع والوصفية، وقد جاء اختياره في هذه المسألة وصفيًا خالصًا؛ فهو لم يشر عند إيراده هذه الشواهد إلى ضعف أو قلة أو ندرة أو شذوذ .

المسألة السابعة : استخدام (من) لغير العاقل : الأصل في استخدام من أنها للعاقل، وقد كان قطرب من أنصار القول الأول الذي تويده لغة العرب وشعرها، وقد استدل على ذلك بأشعار العرب، وقد نص على ذلك قطرب في حديثه حول هذه المسألة فقال: " فهذا حال "من" وإنما هي للآدميين خاصة، وقد جاءت لغيرهم إلا أنهم مخلوطون جميعًا " 100. وهو بذلك يشير إلى أن الأصل في (من) الموصولة أنها للعاقل خاصة، وإنما جاز استخدامها لغير العاقل إذا جاء مختلطاً بغيره من العاقلين، أي من باب التغلب .

ورغم هذه القاعدة التي قدمها قطرب، والتي يبين فيها أن (من) تستخدم لغير العاقل إذا جاء مختلطاً بغيره، إلا أنه ساق من الشواهد النحوية القرآنية والشعرية ما يخالف هذه القاعدة، وذلك يدل على جنوحه نحو المنهج الوصفي الذي يخضع للغة في استخدامها اليومي .

وقد نسب إليه صاحب كتاب (تسهيل الفوائد) القول بجواز استخدام (من) الموصولة لغير العاقل دون شروط ، وخالفه في ذلك، قال محمد بن عبدالله الجبائي، قائلًا: " وتقع (من) و(ما) شرطيتين، واستفهاميتين، ونكرتين موصوفتين، ويوصف ب (ما) على رأي، ولا تزداد (من) خلافاً للكسائي، ولا تقع على غير من يعقل إلا منزلاً منزلته، أو مجامعاً له شمول، أو اقتران خلافاً لقطرب، و(ما) في الغالب لما لا يعقل وحده" 101. وكذلك المرادي في كتابه (توضيح المقاصد والمسالك) فقد قال : " وأجاز قطرب وقوع (من) على ما لا يعقل بلا شرط، واستدل بما لا حجة فيه" 102.

وقد "اشتهر عند النحويين أن (من) الموصولة يُراد بها مَنْ يعقل، ولا يجوز أن يُعبر بها عما لا يعقل، إلا إذا نُزل منزلة مَنْ يعقل... وزعم قطرب أن (من) تقع على ما لا يعقل دون اشتراط ما يصح ذلك" 103.

وقد أعاد قطرب الاستدلال على المسألة في موضع آخر من كتابه فقال : " وكذلك قول الله - عز وجل - : { فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ }¹⁰⁴، (من) ها هنا لغير الآدميين .

وقد تبين مما سبق أنه كان وصفيًا في تناول هذه المسألة، فقد أعمل الشواهد القرآنية والشعرية، وأجاز ما تقتضيه تلك الشواهد، فالسماع لدى قطرب أصل في هذه المسألة، وإن خالف القواعد المقررة .

المسألة الثامنة : استخدام (ما) للعاقل : الأصل في استخدام (ما) أنها لغير العاقل، وقد أشار قطرب إلى هذا الأصل، فقال: "وأما (ما) فأكثر استعمالها في غير الآدميين" 105، وهو بذلك يشير إلى جواز استعمالها في العاقل؛ لأنّ قوله أكثر استخدامها يدل على أنّ هناك استخدام شائع، واستخدام أقل، والمسألة محل خلاف بين النحويين، وعامتهم على أنها لا تصلح للعاقل، قال المرادي: " وأجاز أبو عبيدة، وابن درستويه، وابن خروف، ومن وافقهم، وقوع "ما" على آحاد من يعقل، ونسبه ابن خروف إلى سيبويه، واستدلوا بظواهر تأولها المخالف" 106.

¹⁰⁰ - قطرب، معاني القرآن، (ص456).

¹⁰¹ - الجبائي ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، (ص36).

¹⁰² - المالكي، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، (ج1، ص429).

¹⁰³ - الهويمل، المسائل النحوية في كتاب (التوضيح) لابن الملقن، (ص30).

¹⁰⁴ - النور :45

¹⁰⁵ - قطرب، معاني القرآن، (ص455).

¹⁰⁶ - المالكي، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، (ج1، ص430).

فالقياص أنّ (ما) لا تصلح للعاقل، وقد خالف قطرب هذا القياص واحتج على جواز استخدامها للعاقل، وذلك من خلال ما أورده في المسألة من شواهد قرآنية وشعرية، حيث أقرّ تلك الشواهد ولم يعترض على شيء منها، وهو بذلك يتساق مع أصول المنهج الوصفي الذي يجعل من السماع حجة قائمة بذاتها .

وقد أورد عددًا من الشواهد النحوية منها قول ذي الرّمة:

فلا تتسني من أنني لك ناصح وما أنزل القرآن في ليلة القدر 107

والشاهد في هذا البيت أنّ الشاعر أراد بقوله: (وما أنزل) الله - سبحانه - ويجوز أن يكون على المصدر .
وقول الأخطل :

حلفت بما تساق له الهدايا وما حلت بكعبته النور 108

والدلالة في هذا البيت واضحة جلية، فقد استخدم (ما) وهو يقصد الله - عز وجل - ولا يرتاب المتابع لقطرب في هذه المسألة، وفي كثير من المسائل النحوية التي أوردها في كتابه أنه يميل إلى المنهج الوصفي، ويقف مع السماع، وإن خالف القواعد المقررة في النحو أحيانًا .

المسألة التاسعة: مجيء (إلا) بمعنى حروف العطف (الواو ولكن) : قال الأنباري في كتابه (الإنصاف) : " ذهب الكوفيون إلى أنّ (إلا) تكون بمعنى الواو، وذهب البصريون إلى أنها لا تكون بمعنى الواو... أما الكوفيون فاحتجوا بمجيئه كثيرًا في كتاب الله تعالى وكلام العرب... وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا إنّ (إلا) لا تكون بمعنى الواو لأنّ (إلا) للاستثناء، والاستثناء يقتضي إخراج الثاني من حكم الأول، والواو للجمع، والجمع يقتضي إدخال الثاني في حكم الأول؛ فلا يكون أحدهما بمعنى الآخر". 109.

وقد خالف قطرب البصريين، واتفق مع المذهب الكوفي، ذلك أنّ مذهب الكوفيين أقرب إلى المنهج الوصفي من منهج البصريين، وقد كان اختيار قطرب في هذه المسألة متساوياً مع المدرسة الكوفية، التي توصف عند كثير من النحاة والباحثين بأنها أقرب المدرستين إلى المنهج الوصفي .

وقد احتج قطرب بالشواهد النحوية، ومنها قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

وكلُّ أخٍ مفارقةٌ أخوه ... لعمُرُ أبِيكَ إِلَّا الفِرْقَانُ 110

والاستشهاد بالبيت ههنا في قوله "إلا الفرقان" فإنّ الكوفيين زعموا أنّ (إلا) في هذا البيت حرف عطف بمنزلة الواو، وكأنه قال: كل أخ مفارقة أخوه، والفرقان أيضًا، وقد تابعهم قطرب في ذلك .

وقول المخبل السعدي :

وأرى لها دارًا بأغدره الـ ... سيدان لم يدرس لها رسم

إلا رمادًا هامدًا دفعت ... عنه الرياح خوالد سحم 111

والمراد بإلا ههنا الواو، وإلا كان الكلام متناقضًا، نص قطرب على أنّ المعنى هنا هو معنى الواو، فقال: "ومما جاء على معنى الواو من (إلا)، ثم ساق البيتين، وقال معلقًا : وكان يونس فيما حكى لي عنه - ولم أسمع هذا القول منه - يزعم أنّ المعنى فيه معنى الواو... ولا معنى له يسهل غيره " 112.

وقول الأعشى :

107 - التبريزي، ديوان ذي الرمة بشرح التبريزي، (ص338).

108 - الأخطل، ديوان الأخطل، (ص183).

109 - انظر، الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، (ج1، ص216-218).

110 - القرشي، جمهرة أشعار العرب، (ص14).

111 - الضبي، المفضليات، (ص113-114).

112 - قطرب، معاني القرآن، (ص464).

إِلَّا ابن خارِجة المُكَلَّف نفسه ... وإبني قبيصة أن أغيب ويشهدا 113

فالمقصود هنا وابن خارِجة، وقول النابغة الجعدي:

فتي كملت أعرافه غير أنه ... جواد فلا يبقى من المال باقيا 114

فالمعنى هنا كما يرى قطرب أن الاستثناء هنا على غير معناه ، فلو كان بمعنى الاستثناء لقال : غير أنه بخيل، ولكن الاستثناء هنا بمعنى الواو أو لكن .

المسألة العاشرة : مجيء الاستثناء بمعنى البديل: قال الغلاييني في كتابه جامع الدروس العربية : " إن كان المُستثنى بإلا منقطعاً، فليس فيه إلا النصبُ بإلا، سواءً أتقدّم على المُستثنى منه أم تأخر عنه، وسواءً أكان الكلام مُوجباً أم منفيّاً، نحو "جاءَ المسافرونَ إلا أمتعتهم، جاءَ إلا أمتعتهمُ المسافرون، ما جاءَ المسافرونَ إلا أمتعتهم، ولا تجوز البدليةُ في الكلام المنفي، هنا، كما جازت في المُستثنى المُتَّصل، إذ لا معنى لإبدال الشيء من غير جنسه، ويتو تميم يُجيزون البدليةُ فيه، إن صحَّ تفرُّغ العاملِ قبله له وتسلُّطه عليه، فيجيزون أن يقال "ما جاءَ المسافرونَ إلا أمتعتهم"، لأنك لو قلت "ما جاءَ إلا أمتعةُ المسافرين" 115.

وقد أجاز قطرب البدلية رغم معارضة عامة النحاة؛ ذلك أن عامة العرب لا يجيزون البدلية في مثل ما أجاز قطرب، لكنه قال بذلك إعمالاً للشواهد النحوية على ظاهرها، وهذا الصنيع من قطرب إنما هو تساوq مع أصول المنهج الوصفي، ووقوف مع مقتضى السماع .

قال ابن الناظم في شرحه على ألفية ابن مالك : " وإن كان الاستثناء منقطعاً وجب نصب ما بعد (إلا) عند جميع العرب، إلا بني تميم فإنهم قد يتبعون في غير الإيجاب المنقطع، المؤخر في المُستثنى منه، بشرط صحة الاستغناء عنه بالمُستثنى" 116. وقد ساق قطرب عدداً من الشواهد النحوية التي تؤيد ما ذهب إليه في هذه المسألة ومن ذلك قول سعد بن مالك :

والحربُ لا يبقى لجاجِمِها التخيُّلُ والمِراحُ

إلا الفتى الصِّبارُ في النجْدَاتِ والفرسُ الوَاقِحُ 117

فالمعنى هنا على البدلية وليس على الاستثناء، كأنه قال: لا يبقى إلا الفتى الصبار، وليس باستثناء كما قال قطرب؛ لأن الفتى ليس من التخييل والمراح .

واستدل أيضاً بقول ضرار بن الأزور :

عَشِيَّةَ لا تغني الرماح مكانها ... ولا النبل إلا المشرفي المصمم 118

فالمشرفي هنا ليس مستثنى من الرماح ؛ لأنه ليس منها، بل هو هنا على البديل بحسب ما ذهب إليه قطرب .

ومنه قول النابغة :

وقفتُ فيها أصيلاً لأسألها ... عيئتُ جواباً وما بالرَّبعِ من أحدٍ

إلا الأواريَ لأياً ما أُبيئها ... والنُّوي كالحوضِ بالظلومة الجَدِّ 119

فالأواري ليست مستثناة من أحد، وكذلك النوي ليست مستثناة من أحد فهي هنا على البدلية في لغة تميم خاصة .

ومنه قول الشاعر:

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ 120

113 - الأعرشى، ديوان الأعرشى، (ص230).

114 - الجعدي، ديوان النابغة الجعدي، (ص188).

115 - الغلاييني، جامع الدروس العربية، (ج3، ص136).

116 - ابن الناظم، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، (ص216).

117 - المرزوقي، حماسة أبي تمام، (2 ج، ص500).

118 - الضبي، المفضليات، (ص65).

119 - الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، (ص15).

فاليغافير ليست مستثناة من الأنييس؛ لأنها ليست منها، فهي على البدلية في لغة تميم .

المسألة الحادية عشرة : مجيء صيغة فاعل بمعنى مفعول : قال أبو جعفر النحاس : " فاعل بمعنى مفعول فيه بطلان البيان، ولا يصح ولا ينقاس، ولو جاز هذا لجاز ضارب بمعنى مضروب "121، وقال ابن خالويه : " ليس في كلام العرب: فاعل بمعنى مفعول إلا قولهم: تراب سافٍ، وإنما هو مسفٍ؛ لأن الريح سفته، والريح سافية، والتراب مسفٍ، والريح هي السوافي، والسافياء: التراب أيضًا والرياح ومثله: عيشة راضية، بمعنى مرضية، وسر كاتم بمعنى مكتوم، وليل نائم بمعنى ناموا فيه"122.

ورغم أنّ كثيرًا من النحاة يرفضون مجيء صيغة فاعل بمعنى مفعول، وبعضهم يرى أنّ ذلك من القليل النادر، فقطرب يقف مع الشواهد النحوية، ويرى أنها دليل على صحة ذلك، وهو بذلك يخالف المعايير المقررة، ويتساوق مع السماع الذي يثبت ذلك .
قال قطرب : " ومثل ذلك في فاعل، وهي على معنى مفعول، ومنه قولهم : الراحلة وإنما هي المرحولة، وهذا سر كاتم أي مكتوم؛ لأنّ السر لا يكون كاتمًا، وما أنت بحازم عقل أي محزوم، وأمر عارف أي معروف "123، ثم ساق على ذلك الشواهد النحوية، ومنها :

قول لبيد العامري :

ثم أصدرناهما في وارد صادر وهم ضواه قد مثلت¹²⁴

فالمقصود الطريق، وهو مورود، ومصدر عنه .

وقال بشر :

ذكرت بها سلمى فبت كأنما ذكرت حبيبًا فاقداً تحت مرمس¹²⁵

فقال : فاقداً، وأراد مفقودًا .

وقد اتبع النحاس معيارية صارمة، قدّم فيها القياس، وأعرض عن السماع، حيث قال: " فاعل بمعنى مفعول، فيه بطلان البيان، ولا يصح ولا ينقاس، ولو جاز هذا لجاز ضارب بمعنى مضروب "126.

وقد خالف قطرب هذه المعيارية، وأعرض عمّا ذكره النحاس، وأعمل في هذه المسألة مقتضى السماع، فقد جاء اختياره منطلقاً من أصول المنهج الوصفي، حيث أورد الشواهد القرآنية والشعرية، وبيّن مواطن الاستدلال فيها بما يتناسب مع الوصفية دون جنوح إلى التأويل أو التقدير، ودون استبعاد لها، أو تضعيف لبعضها .

المسألة الثانية عشرة : العطف على الضمير المخفوض : اختلفت في هذه المسألة المدرستان البصرية والكوفية، فأجاز الكوفيون العطف على الضمير المخفوض، ومنع من ذلك البصريون. وقد أشار الأنباري إلى حجة كل من الفريقين فقال: "أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أنه يجوز أنه قد جاء ذلك في التنزيل "127، وحتجهم هنا تساوق مع أصول المنهج الوصفي، ذلك المنهج الذي يجعل من المسموع حجة وإن خالف القاعدة المقررة . "وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا إنه لا يجوز، وذلك لأنّ الجار مع المجرور بمنزلة شيء واحد، فإذا عطفت على الضمير المجرور - والضمير إذا كان مجروراً اتصل بالجار، ولم ينفصل منه، ولهذا لا يكون إلا متصلاً، بخلاف ضمير المرفوع والمنصوب - فكأنك قد عطفت الاسم على الحرف الجار، وعطفت الاسم على الحرف لا يجوز "128.

120 - العود، ديوان جرار العود، (ص97).

121 - النحاس، إعراب القرآن، (ج5، ص124).

122 - ابن خالويه، ليس في كلام العرب، (ص317).

123 - انظر، قطرب معاني القرآن، (ص469).

124 - العامري، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، (ص82).

125 - ابن أبي حازم، ديوان بشر بن أبي حازم، (ص100).

126 - النحاس، إعراب القرآن، (ج5، ص124).

127 - الأنباري، الإحصاف في مسائل الخلاف، (ج2، ص379).

128 - المرجع السابق، (ج2، ص382).

وقد جاء رأي قطرب متماشياً مع المذهب الكوفي، ومخالفًا للمذهب البصري في هذه المسألة، فأجاز العطف على الضمير المخفوض، وقد صرح بذلك في توجيهه لقول الله - تعالى - : {لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ} ¹²⁹، فأجاز أن يكون (المقيمين) : في موضع خفض بالعطف على الكاف في "إليك" والتقدير فيه: يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة .

قال قطرب: " الوجه الثاني على الكاف في " إليك وإلى المقيمين الصلاة " ويكون على مثل " تساءلون به والأرحام "130. وهكذا نجد اختيار قطرب وصفيًا في هذه المسألة، بل جاء مخالفًا لاختيار المدرسة البصرية التي ينتمي إليها، الأمر الذي بثبت ظهور العديد من مبادئ المنهج الوصفي في دراستنا اللغوية والنحوية القديمة.

نتائج البحث:

يمكن تلخيص أهم نتائج البحث بما يأتي:

- 1- اعتنى قطرب بالسماع، وتنوعت مصادر السماع في كتابه، بين الأخذ المباشر من أفواه العرب، أو السماع من طريق الرواة، أو من مشايخه، في تساوق واضح مع أصول المنهج الوصفي الذي يعدّ السماع من أهم مصادر اللغة، وهو الوسيلة للاتصال بناطقي اللغة ، وربطها بالواقع اللغوي المنطوق.
- 2- جاء البحث اللغوي في كتاب قطرب؛ خدمة لكتاب الله - تعالى - إذ استعان بكلام العرب وأساليبهم، رغم تنوع اللهجات العربية؛ لذلك جاء كتابه في معظمه بحثًا وصفيًا يجمع كماً هائلًا من لغة العرب بتنوعها، ويغطي مساحة واسعة من القبائل العربية؛ ليكشف عن التنوع اللغوي في لهجات العرب .
- 3- لقد أدرك علماء اللغة والنحو العرب أهمية الجانب الصوتي في الدراسات النحوية، ومنهم قطرب في كتابه معاني القرآن، إذ تأثر بشيخه سيبويه الذي كانت له عناية فائقة بالجانب الصوتي في كتابه "الكتاب"، والناظر في كتاب قطرب يجد تساوقًا واضحًا مع أصول المنهج الوصفي الحديث في هذا الجانب، كما يجد أثرًا واضحًا لمنهج سيبويه في وصف الأصوات، فهو يعني بوصف حركات أعضاء النطق عند التلفظ ببعض الأوزان، كما يعني بوصف التداخل الصوتي وأثره في تغيير بعض الحروف أو حذفها .
- 4- جاء اختيار قطرب وصفيًا في كثير من المسائل النحوية التي درسها في كتابه؛ إذ قدم السماع على القواعد النحوية المقررة، وتناول العشرات من المسائل النحوية بعيدًا عن القياس والتعليل والتأويل.
- 5- خالف قطرب المدرسة البصرية في العديد من اختياراته النحوية، ومال إلى رأي المدرسة الكوفية التي يصفها كثير من الباحثين بأنها وصفية المنهج .
- 6- لقد وضع قطرب باكورة المنهج الوصفي، يظهر ذلك من خلال الأصول التي انطلق منها في كثير من مباحث كتابه، ما يثبت عراقية البحث اللغوي عند علمائنا الأول، فالتراث العربي حقيق بالدراسة والنظر؛ إذ يشتمل على كثير من النظريات والمنطلقات اللغوية التي تحاول البحوث اللسانية الوصول إليها .

¹²⁹-النساء: 162.

130 - معاني القرآن، ص473.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- امرئ القيس، ابن حجر الكندي، (1984م) *ديوان امرئ القيس*، تحقيق: الدكتور محمد أبو الفضل إبراهيم، ط5، مصر، دار المعارف .
- أحمد، نوزاد حسن، (1996م) *المنهج الوصفي في كتاب سيويه*، ط1، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.
- الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي، (1996م) *ديوان الأخطل*، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط4، دمشق، دار الفكر المعاصر .
- الأعشى، ميمون بن قيس، (2003م)، *ديوان الأعشى*، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الألوسي، شهاب الدين، محمود بن عطية الحسيني، (1415هـ)، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية .
- الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله، (2003م) *الإنصاف في مسائل الخلاف*، ط1 (د.م)، المكتبة العصرية .
- البغدادي، عبد القادر بن عمر، (1997م) *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب* تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط4، القاهرة، مكتبة الخانجي .
- البياتي، سهيلة طه محمد، (2008م)، *المنهج الوصفي في كتاب (في النحو العربي نقد و توجيه) مجلة جامعة تكريت - كلية التربية، 4 (11)* .
- التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الشيباني، (2000م)، *شرح ديوان الحماسة لأبي تمام*، كتب حواشيه: غريد الشيخ، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية .
- التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الشيباني، (د.ت)، *شرح ديوان الحماسة*، ط1، بيروت، دار القلم.
- التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الشيباني، (1992م) *شرح ديوان عنتره*، ط، بيروت، دار الكتاب العربي .
- ابن ثابت، حسان، (1974م)، *ديوان حسان بن ثابت*، تحقيق: الدكتور سيد حنفي حسنين، ط1، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، (2002م) ، *الكشف والبيان عن تفسير القرآن*، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشر، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، ط1، لبنان، دار إحياء التراث العربي.
- جران العود، عامر بن الحارث، (1982م) *ديوان جران العود النميري*، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، ط1، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام .
- جرير، ابن عطية الخطفي، (1986م)، *ديوان جرير*، تحقيق: نعمان أمين طه، ط3، مصر، دار المعارف .
- الجعدي، أبو ليلى عبد الله بن قيس بن عدس، (1998م)، *ديوان النابغة الجعدي*، تحقيق: الدكتور واضح الصمد، ط1، بيروت، دار صادر .
- ابن جني، أبو الفتح، عثمان، (د.ت)، *الخصائص*، ط4، القاهرة، الهيئة المصرية العامة .
- الجياني، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله، (1967م)، *تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد*، تحقيق: محمد كامل بركات، (د.ط) دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .
- ابن الحاجب، حسن بن محمد بن شرف الأستراباذي، (2004م)، *شرح شافية ابن الحاجب*، تحقيق: د. عبد المقصود محمد عبد المقصود، ط1، مكتبة الثقافة الدينية .

- حجازي، محمود فهمي، (د.ت) ، أسس علم اللغة العربية، ط1، القاهرة، دارالثقافة للطباعة والنشر .
- حجازي ، محمود فهمي، (د.ت)، مدخل إلى علم اللغة، ط1، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع .
- حسان، تمام، (2000م) ، اللغة بين المعيارية والوصفية، ط4، القاهرة، عالم الكتب .
- حسان، تمام، (1990م)، مناهج البحث في اللغة، ط1، القاهرة ، مكتبة الإنجلو المصرية .
- حسنيين، صلاح الدين صالح، (1984م)، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن، ط1، (د.م) ، دار العلوم للطباعة والنشر .
- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، (1420هـ) ، البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل، ط1، بيروت، دار الفكر الأولى .
- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، (د.ت) ، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق د. حسن هندواوي، ط1، دمشق ، دار القلم .
- ابن أبي خازم، بشر بن أبي خازم الأسد ، (1960م)، ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: د. عزة حسن، ط1، سوريا، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الإقليم السوري .
- الخالدي، كريم حسين ناصح، (2007م)، مناهج التأليف النحوي، ط1، عمان، الأردن، دارصفاء للنشر والتوزيع.
- ابن خالويه، أبو عبد الله، الحسين بن أحمد، (1979م) ، ليس في كلام العرب، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط2، مكة المكرمة .
- خرما، نايف، (1978م)، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ط1، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .
- خليل، حلمي، (1995م) ، العربية وعلم اللغة البنيوي، ط1، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية .
- دي سوسير، فردينان، (1985م)، علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف، بغداد، دار آفاق عربية (د.ت) .
- الراجحي ، عبده، (1986م)، النحو العربي والدرس الحديث ، ط1، دار النهضة العربية .
- الراوي، طه، (1962م)، نظرات في اللغة والنحو، ط1، بيروت، المكتبة الأهلية .
- ذي الرمة، غيلان بن عقبة، (1998م)، ديوان ذي الرمة، تحقيق: الدكتور عمر فاروق الطباع، ط1، بيروت ، شركة الأرقم بن أبي الأرقم.
- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، (1957م)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، (د.م)، دار إحياء الكتب العربية .
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، (2002م) الأعلام ، ط15، (د.م)، دار العلم للملايين
- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (1993م) (المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق : د. علي بو ملح ، ط1، بيروت ، مكتبة الهلال .
- زوين، علي، (د.ت) ، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ط1، (د.م) دار الشؤون الثقافية العامة.
- سيبويه، عمرو بن عثمان، (1988م) ، الكتاب، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، ط3 ، القاهرة، مكتبة الخانجي
- أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم، (2003م) ، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط2، القاهرة، مكتبة السنة، القاهرة .
- الضبي، المفضل، (د.ت) ، المفضليات، تحقيق الدكتور أحمد شاکر، وعبد السلام هارون، ط6، القاهرة ، دار المعارف.
- الطائي، حاتم ، (1986م) ، ديوان حاتم الطائي، تحقيق : أحمد رشاد، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

- العامري، ليبيد بن ربيعة، (د.ت)، *ديوان ليبيد بن ربيعة العامري* ، ط1، بيروت، دار صادر .
- الغزالي، نعمة رحيم، (2001م)، *مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة*، ط1، منشورات المجمع العلمي، مكتبة اللغة العربية.
- عزيمة، محمد عبد الخالق، (د.ت)، *دراسات لأسلوب القرآن الكريم*، تصدير محمود شاكر، القاهرة، دار الحديث .
- ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني، (1980م)، *شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط20، القاهرة، دار التراث .
- علقمة الفحل، علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس، (1969م)، *ديوان علقمة الفحل* ، شرح الأعلام، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط1، حلب، دار الكتاب العربي ، مطبعة حلب.
- عميرة، إسماعيل أحمد، (1992م)، *المستشرقون والمناهج اللغوية*، ط2، عمان، دار حنين .
- الغلابيني، مصطفى بن محمد سليم، (1993م) ، *جامع الدروس العربية*، ط28، صيدا - بيروت ، المكتبة العصرية.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن القزويني، (د.ت)، *الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها* ، قدم له مصطفى الشومي، ط1، (د.م) مؤسسة بدران للطباعة والنشر .
- الفخر الرازي، أبو عبد الله ، فخر الدين، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، (1420هـ) ، *مفاتيح الغيب*، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- الفرزق، همام بن غالب بن صعصعة الدارمي، (1997م)، *ديوان الفرزدق*، شرحه الدكتور :عمر فاروق الطباع، ط1، لبنان ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- القرشي، أبو زيد ، محمد بن أبي طالب، (د.ت) ، *جمهرة أشعار العرب*، تحقيق : علي البجادي ، ط1، القاهرة ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
- قطرب، محمد بن المستنير، (2016م)، *معاني القرآن وتفسير مشكل إعرابه*، تحقيق: محمد لقريز، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر .
- المالكي، أبو محمد ،بدر الدين، حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي، (2008م) *توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك*، تحقيق عبد الرحمن علي سليمان، ط1، القاهرة، دار الفكر العربي .
- المالكي، مطير بن حسين، *موقف علم اللغة الحديث من أصول النحو العربي*، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية وآدابها، مكة المكرمة .
- ابن مقبل، تميم بن مقبل ، (1995م) *ديوان ابن مقبل*، تحقيق: د.عزة حسن ، ط1، بيروت، دار الشرق العربي .
- أبو المكارم، الدكتور علي، (د.ت)، *أصول التفكير النحوي* ، ط1، (د.م)، دار غريب .
- الناطقة، زياد بن معاوية الذبياني، (د.ت)، *ديوان النابتة النيباني*، تحقيق: الدكتور محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط2 ، مصر، دار المعارف .
- ناظر الجيش، محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي، (1428هـ) ، *تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد* ، تحقيق: د. علي محمد فاخر وآخرون ط1، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
- ابن الناظم، بدر الدين، محمد ابن الإمام جمال الدين، (2000م)، *شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك*، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن إسماعيل، (1421هـ) ، *إعراب القرآن*، علق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

نحلة، محمود أحمد، (1987م)، *أصول النحو العربي*، ط1، لبنان، دار العلوم العربية.
النحوي، أبو العباس، أحمد بن محمد، (1996م)، *الانتصار لسيبويه على المبرد*، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، ط1(د.م)، مؤسسة الرسالة.
نهر، هادي، (د.ت)، *الحروف والأصوات في مباحث القداء والمحدثين*، ط1، بغداد، جامعة المستنصرية .
الهويميل، داود بن سليمان، (1437هـ)، *المسائل النحوية في كتاب (التوضيح لشرح الجامع الصحيح) لابن الملقين* ، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة القصيم ، القصيم.
ابن يعيش، موفق الدين، يعيش بن علي بن يعيش، (د.ت)، *شرح المفصل* ، ط1، بيروت، عالم الكتب.